Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i1

التَّكامل الدلالي في دعوة التوحيد عند النبي نوح(عليه السلام)

أ.د: رعد هاشم العبودي
Raad.Hashim@utq. edu.iq
م.م : طارق حميد عجيمي
tar.ham1213@gmail.com

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية- فرع اللغة

الملخص

القرآن الكريم منهلُ البلاغة، ومقصد الباحثين ممَّن تعاملوا معه بإخلاص ووفاء. في هذا البحث غايةٌ ارتبطت بقداسة النص الكريم، فالبحثُ يُشير إلى ظاهرةٍ اعجازيةٍ في القرآن الكريم، وهي ظاهرة (التكامل الدلالي)، وقد قدَّم البحثُ عرضاً لمظاهر التكامل الدلالي الحاصل بين أجزاء التعبير القُرآني في ثلاث سور، هي(الأعراف، وهود، ونوح). إذ اثبت أنَّ المستويات الدلاليَّة الثلاثة تتضافر بينها لتقدم للمتلقي المحتوى النصي المراد إيصاله. وهذه المستويات تعملُ جميعها تحت عامل المناسبة مع المقام العام للسورة، وكذلك تخضع لمقصدية أو مغزى السورة العام الذي تنطوي تحته مقاصد الآيات المكونة للسور. فالوحدة المعجمية في الأية الكريمة تمثل لِبنةً من لِبنات الهيكل الدلالي، إذ تُعدُّ ضرورة لا بديل لها في موضعها. ومن هذا المنطلق رأى العلماء استحالة استبدالها بأي لفظٍ آخر. والأمر ذاته نجده في علَّة استعمال الصيغ الصرفيَّة، إذ تعدد دلالات الصيغ الصرفيَّة وحاجة النص هما اللذان يحدِّدان حضور صيغةٍ دون أُخرى. وكذلك الحال بالنسبة لتوزيع المظاهر التركيبيَّة النحوية، إذ نجد أنَّ توزيع المظاهر النَّحوية يخضع لحاكميَّة مقصد المتكلم. والمستويات جميعها تعمل من أجل بناء هيكل كامل الدلالة، من خلاله تتمُّ عملية إيصال الرسالة بين المُتكلم والسَّامع .

الكلمات المفتاحية : التكامل – الدلالي

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i1

Semantic Integration in the Monotheistic Message of Prophet Noah (peace be upon him)

Prof. Dr. Raad Hashem Al-Oboudi
Raad.Hashim@utq.edu.iq
Asst. Lecturer Tareq Hameed Ajimi
tar.ham1213@gmail.com

Abstract

The Holy Qur'an is the source of eloquence, and the destination of the honorable people who deal with it sincerely and loyally. The purpose of this research is linked to the holiness of the Holy Text. The research refers to a miraculous phenomenon in the Holy Qur'an, which is the phenomenon of (semantic integration). The research presented a presentation of the manifestations of the semantic integration occurring between the parts of the Qur'anic expression in three surahs, which are (Al-A'raf, Hud, and Nuh). It has been proven that the three semantic levels combine to provide the recipient with the textual content to be conveyed. These levels all work under the factor of matching with the general status of the surah, and are also subject to the general purpose or meaning of the surah, which underlies the purposes of the verses that make up the surah. The lexical unit in the noble verse represents a building block of the semantic structure, as it is considered a necessity that has no alternative in its place. From this standpoint, scholars considered it impossible to replace it with any other word. The same thing we find in the reason for using morphological forms, as the multiple connotations of morphological forms and the need of the text are what determine the presence of one form and not another. The same applies to the distribution of syntactic grammatical features, as we find that the distribution of grammatical features is subject to the speaker's intent. All levels work to build a complete structure of meaning, through which the process of conveying the message between the speaker and the listener takes place.

Keywords:

المبحث الأول : في سورة الاعراف:

سنأخذ ما جاء في سورة الأعراف كأنموذج لبيان التَّكامل الدلالي الحاصل في المستويات التعبيريَّة التي يعمل البحث من خلالها.

إذ قال تعالى في سورة الأعراف((لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ))[الاعراف:59].

الدلالة المعجميَّة :

لو نظرنا إلى المستوى المعجمي، ومدى تأثيره في عملية التكامل الدلالي للآية الكريمة، وكيفية تناسقه مع السياق العام للسورة، لوجدنا بأنَّه قد شكَّلَ مع المستويات الأخرى هيكلاً دلاليَّاً متكاملاً، رُسمت ملامحه من خلال التناسق الحاصل بين مكونات النص. وسنأخذ المفردة المعجمية(أرسلنا)، وسنبحثُ في علَّةِ ورودها في ذلك السياق، ودورها في إكمال المستوى الدلالي للآية الشريفة.

جاء لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)، أن معنى الرسل هو(الهَيْئَةُ والسُّكُون، يقال: تَكَلَّمْ على رِسْلِكَ. والرِّسلُ: اللَّبَنُ. والاسترسالُ إلى شيءٍ كالاستِئناس والطُّمَأْنينة،... والتَّرسُّلُ في الأمر والمنطق كالتمهل والتَّوقُّرِ والتَثَبُّت).

وذكر ابنُ منظور(ت711هـ) بأنَّ (رسل) فيه معانٍ منها، الرسالة التي يحملها الرسول، ومنها الِاسْتِئْنَاسُ والطمأْنينة إلى الإنسان والثِّقةُ بِهِ فِيمَا يُحَدِّثه، وأصلُهُ السكون والثبات والثقة بالنفس، ومنه كذلك التَّرَسُّل فِي الْكَلَامِ، والتَّوقُّر، والتفهمُ، وَالتَّرَفُّقُ مِنْ غَيْرِ أَن يَرْفَعَ صَوْتَهُ شَدِيدًا.

ولو أنعمنا النظر في كتب الفروق، لوجدنا بأنَّها لفظةٌ تمتلك خصوصيةً في الاستعمال اللغوي، إذ نجد بأنَّها تُشيرُ إلى الطمأنينة، والسكون، والوقار. ورأى أصحاب الفروق أنَّ الارسال يتطلب رسالةً، ومُرسَل، ومُرسِل، ومتلقي، ولا يكون المبعوثُ رسولاً إلا بوجود رسالةٍ يحملُها إلى المتلقي.

والنبي نوح (عليه السلام) قد حَمَلَ رسالةً إلى قومِهِ من الله تعالى، وتحميلُ الرسالةِ هو التَّكليفُ الذي كلَّفه الله تعالى بالقيام به، وتلك منزلةٌ جليلةٌ شريفةٌ، يستحقُّ من يُكلَّفُ بها من التعظيم والاجلال ما لا يستحقُّ غيره من عدم التكليف.

ولعل استعمال الوحدة المُعجمية(أرسلنا)، يحملُ بُعداً دلالياً تكامليَّاً من حيثُ كونه لفظاً اجتمعت فيه مضامين دلالية تناسب مقام الحال، التي عليها السورة من ناحية العموم، أو الآية من ناحية الخصوص.

فقد تضمنت تلك الوحدة دلالاتٍ منها: الهيبة، والوقار، والثبات، والطمأنينة، والثِّقة بالنَّفسِ، والتمهل. وكأنَّها تُشيرُ إلى صفات حامل الرسالة، التي اجتمعت في مَنْ أكرمه الله تعالى بتلك المهمة، وهي صفاتٌ يطلبها السِّياقُ العام للسورة، إذ لا بُدَّ لمن يتصدى لمهمةِ تغيير ثقافة المجتمع العقدية أنْ يكون قادراً على أداء المهمة، ولمَّا كان النبي نوح (عليه السلام)، قادراً بعلم الله تعالى، ناسبه ذلك التعبير، وهو الارسال؛ لأنَّ(الْإِرْسَال يُفِيد معنى الْبَعْث ويتضمن نوعا من الْعُلُوّ لِأَنَّهُ يكون من فَوق).

هذا من ناحية النبي، ومن ناحيةٍ أخرى، ذكرنا بأنَّ السياق العام للسورة ذو صبغةٍ تأنيبيَّةٍ، وذو طابعٍ يُشيرُ إلى الشدَّة في التعامل مع المعاندين، والمنكرين، الذين يقفون في طريق الدعوات التي جاء بها الأنبياء(عليهم السلام) في سورة الأعراف.

وقد أجمل الله تعالى في الآيات الأولى مسار السُّورة، إذ قال تعالى ((وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ * وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ)) [الأعراف: 4-9].

والنص الكريم يُشير إلى أنَّ الله تعالى، لمَّا أنذرهم بعذاب الدنيا، أعقبه قسمٌ بوجود عذاب الآخرة، فقد أُخرج الكلام من أوّله مخرجَ التهديد والزَّجر؛ ليتأهَّبَ العباد بحسن الاستعداد للسؤال الموعود، وأنَّه تعالى نفى أنْ يكون السؤال سؤالَ استرشاد واستعلام، وإنَّما يسألهم سؤال تقريع، وتبكيت، ولوم.

وما دام النص قائماً على تلك الهيئة التأنيبيَّة، والتبكيتيَّة؛ فقد ناسب ذلك ما يدلُّ على الشدَّةِ في التعبير، وهو اللفظ (ارسلنا)؛ لأنَّه يحمل معنى العلو والقوة.

وذكر الفخر الرازي(ت606هـ)، وهو يعلل اختلاف التعبير بين سورة البقرة، التي استعمل بها الله تعالى ((أنزل))، وبين سورة الاعراف التي استعمل بها الله تعالى(أرسل)، بأنَّ الانزال يستعمل لما يحدثُ في أول الأمر، وفيه عذاب لا يدلُّ على الاستئصال الكلي. أمَّا (الارسال)، فيدلُّ على تسليط العذاب على القوم، وهذا النوع من العذاب يطال القومَ جميعاً، بحيثُ يؤدي إلى استئصاله لهم بالكلية، وذلك إنَّما يحدث بالأخرة.

وأشار إلى ذلك الدكتور فاضل السامرائي، إذ ذكر في كتابه (التعبير القرآني)، أنَّ الارسال يستعمل في العقوبات الأكثر شدَّةً، والاستعمال القرآني سار على استعمال الارسال في العقوبة الشديدة، أمَّا العقوبات التي لا تتصف بالشدَّة، فقد استعمل معها (الانزال).

ومن ذلك قوله تعالى((وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ))[الفيل:3].
ومنه أيضا، قوله تعالىٰ((أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا))[مريم:83].
ومنه أيضاً، ما جاء في قوله تعالى ((فَكُلّٗا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ))[العنكبوت:40].
نخلص من ذلك إلى أنَّ العملية التكاملية لتلك الوحدة المعجميَّة، قد حصلت من خلالِ المزيج المتناسب بين ما تحتويه تلك المفردة من معانٍ، وبين ما بُنيتْ عليه السورة الكريمة من مضامينٍ أو موضوعاتٍ. فالتهديد والوعيد، والتأنيب، كل ذلك يتطلب لفظاً يجمع بين عملية البعث، والعلو، والشدَّة. فكان ذلك اللفظ هو الأنسب، والأكثر انسجاماً، وتفاعلاً مع سياق النص الكريم.

الدلالة الصَّرفيَّة:

لو تأملنا في علَّة ورود الوحد المعجمية (أرسلنا) على الوزن الصرفي (أفعل)، لوجدنا أنَّها تعملُ ضمن مجموعة من القرائن اللغوية، التي تتضافر من أجل إبراز الصيغة النهائية للصورة المعنوية، التي عن طريقها تحدثُ عملية التواصل بين مستعملي اللغة.

جعل المختصون الصَّرفيون فروقاً معنويَّةً بين الصيغ الصَّرفيَّةِ، وهو ما يسمَّى بمعاني الأبنية، وقد جعلوا لتلك الصيغة أكثر من معنى، منها التعدية نحو : أجلسته، ومنها الصيرورة نحو: أقشع السحاب إذا صار ذا انكشاف، ومنها بلوغ الشيء حينه نحو: أحصد الزرع إذا حان حصاده، وتأتي بمعنى وجدته نحو : أحمدتُ الرجل، أي وجدته محموداً، وتأتي بمعنى الدخول في الشيء نحو : أظلم، وتأتي بمعنى الازالة نحو : أعجمت الكتاب، وتأتي للمبالغة نحو أتمر الرجل إذا كثر تمره، وعادة تأتي لتعبّرَ عن معنى الفعل نفسه، مع التعدية.

وذكر ابنُ درستويه (ت 347هـ) في (تصحيح الفصيح) أنَّ لمثل ذلك الوزن دلالاتٍ خاصة، وهو يفرّقُ بين الوزنين(فعلت، وأفعلت)، إذ ذكر أنَّ قولنا :(شرقت الشمس) يدل على الشروق الذي بمعنى طلعت. وهو مقابلٌ للغروب. أمَّا قولنا):أشرقت الشمس)، فيدلُّ على وصفها بالإضاءةِ، والصَّفاء والفرق بين الدلالتين أنَّ الشروق لا يكون فيها، إلا حين طلوعها، حتى إذا طلعت كدرةً أو منكسفة.

وأما الإشراق فيكون فيها طيلة النهار، وفي كل ساعة يزداد فيها ضوؤها ونورها، ولا يأتي ذلك الحال مع الكدر، ولا الكسوف؛ ولذلك السبب جاز القولُ أنَّ لكل ما استنار وأضاء، وحسن لونه قد أشرق، وهو مشرق، ومنه قوله تعالى ((وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ))[الزمر:69].

ولعل السبب من وراء حضور ذلك الوزن الصرفي في الآية الكريمة، يكمن في اقتراب ذلك المعنى المتضمن في تلك الصيغة، وهو المعنى الذي يُشيرُ إلى القيمة العظيمة التي جاءت بها الرسالة التوحيديَّة، وهي رسالة تستحق الكثير من الاهتمام؛ كونها تنتقل بالإنسان إلى المراتب الانسانيَّة التي تناسب الغاية الحقيقية من وجوده، ألا وهي العبادة التي يكون الله تعالى فيها حاضراً قولاً، وفعلاً، وقد ذكر الله تعالى تلك الحقيقة بقوله تعالى ((وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ))[الذاريات:56].

ومن منطلق القيمة العظمى للرسالة، فقد ناسبها صيغة تحمل إيحاءاتٍ دلاليَّةٍ تتناسب مع تلك القيمة الكبيرة للرسالة، وقد نُقِل عن ابن درستويه (ت 347هـ) أنَّ تلك الصيغةَ تحمل زيادة على معنى الفعل الذي يأتي عليها معنى السعة والزيادة في المعنى، إذ ذكر أنَّ قولنا : (أسقيته) تدل على السقي مع السعة والوفرة خلافاً لقولنا : (سقيته)، فقد اقتصرت على السقي فقط.

ولمَّا كان السياق العام لسورة الاعراف ذا مضمون عتابي تأنيبي، وذا طابعٍ يُشيرُ إلى التعنيف، واللوم في التعامل مع المعاندين، والمنكرين، الذين يقفون في وجه دعوة النبي التي جاء بها هدايةً للناس؛ بغية خلاصهم من العذاب الأليم، فقد ناسب ذلك المصداق ورود صيغةٍ معبرة عن حجم المهمة، وأهميتها؛ لأنَّ هذا النوع من الصيغ يسهم في إعطاء مساحة أوسع لفضاء المعنى، إذ تلك الصيغة، قد أكسبتها معنى الثبات، والمبالغة، وهذان هما الأكثر تناسبٍ مع التأنيب، واللوم، والتشديد.

ولا يكون الأمر بأفضل من اجتماع تلك الصيغة، والوحدة المعجمية(أرسل)، ليقدما معاً مقابلاً دلالي إيحائي، يمكن من خلاله مرور الأفكار والمضامين إلى المتلقي بشكلٍ سليمٍ. فالصيغة تحمل معنى الفعل والسعة في حدوثه، أي انَّ الحدث منها

على وجه الكثرة، هذا من ناحية الصيغة، ومن ناحيةٍ أخرى، ما يحمله الفعل(أرسل) من معانٍ، فالارسال بطبيعة استعمالة، فإنَّه يستعمل في الأمور، التي تتصف بانَّها أشدُّ وقعاً، وأكثر تأثيراً.

الدلالة النَّحويَّة :

أمَّا المستوى النحوي، فسنجده يعمل عملاً تكميليَّاً مع متطلبات النص الدلالية، إذ نجدُ فيه معالم التشديد، والإلزام من خلال الأساليب النحوية الموجودة في النص الكريم.

ومن تلك الأساليب أسلوب التوكيد، الذي كان مهيمناً على الآية الكريمة، ولعلَّ ذلك من متطلبات المقام؛ لأنَّ مقام التشديد، والتأنيب يتطلب تقوية المعنى؛ ليكون أقرب إلى التأثير أو الاقناع.

فالنصُّ الكريم بدأ بلام واقعة في جواب القسم المحذوف، والتقدير(واللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا)، والقسم أحد أساليب التوكيد في اللغة العربية، يعمل على تقوية المعنى، بغية إزالة الشك من ذهن السامع، إن كان شاكَّاً، أو يأتي لبيان قوة المُقسم عليه، وضرورة العمل بما يأمر.

وقد رأى الزمخشري(ت538هـ) أنَّ قوله تعالى ((لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً)) جوابٌ لقسم محذوف. فإذا قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلا مع «قد»؟ فالجواب بحسب ما جاء به الزمخشري هو : أنَّ الجملة القسميَّة لا تُساق إلا لغرض توكيد الجملة المُقسمِ عليها.

أمَّا أبو السعود (ت982هـ) فقد ذكر أنَّ اللام واقعة في (جوابِ قسمٍ محذوفٍ أيْ واللهِ لقد ارسلنا الخ واطرادا استعمالِ هذه اللامِ مع قد لكون مدخولِها مَظِنَّةً للتوقع الذي هو معنى قد فغن الجملة القسَميةَ إنما تُساق لتأكيد الجملةِ المُقسَم عليها).

ولعلَّ وجود القسم في بداية الآية المباركة، والذي دلَّ عليه الحرف المذكور(اللام)، يُشيرُ إلى أمرين مهمين هما : الضَّرورةِ، والتَّشديدِ. أمَّا الضَّرورةُ فتمثلتْ بحتميَّةِ الارسال بكلِّ ما تحمله تلك المفردة-كما ذكرنا-. وأمَّا التشديد، فلعلَّه ارتبط بواقع السورة العام، الذي ساد فيه التأنيب واللوم.

أمَّا لو نظرنا إلى الخطاب، الذي جاء به نوح (عليه السلام) في قوله تعالى((ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ))، فسنلاحظ بأنَّ النبي قد بدأ خطابه بفعل الأمر(اعبدوا)، الذي يدلُّ على لزوم التَّوحيد.

وقد استهل دعوته بأهمِّ الأمور العقديَّة، وهي الدَّعوة إلى عبادة الله تعالى، إذ تُعدُّ من أهم الأعمال العقديَّة؛ كونها تعدُّ الأساس لكل الأعمال الأخرى؛ لأنَّها أساسُ الرسالاتِ السماويَّةِ، وهذا من باب تقديم الأهمِّ على المهم. وسيبويه(ت180ه) يرى بأنَّ العرب (إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم).

ويَعْقبُ ذلك الخطاب بجملة تؤكدُّ على ضرورة التمسك بتلك الدعوة، دعوة التوحيد لله الواحد الأحد، إذ قال تعالى((مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ))[الاعراف:59].

وقد جاء هذا القول كجملةٍ تعليلية للعبادة، أي أنتم ملزمون بعبادة الله تعلى وحده؛ لعدم وجود إلهٍ غيره، وأنَّ ما سواه ضربٌ من الضلال والكذب.

وبيَّنَ ابنُ السَّراج (ت316هـ) أنَّ النفي الحاصل في هذا التعبير الكريم ((مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه))، قد نفى كُلَّ رجلٍ وكُلَّ أحدٍ، أي أنَّ النفي هنا شامل. ولو قلت: (ما رجل في الدار) لجاز في هذا التعبير أن يكون في الدار رجلان، وممكن أنْ يكون فيها أكثر. أمَّا إذا قلتَ : (ما من رجل في الدار)، فهنا لم يجز أن يكون فيها أحد البتة.

أمَّا ابنُ يعيش(ت643هـ)، فقد ذكر بأنَّ عملية توكيد النَّفي بالحرف الزائد(مِنْ)، تأتي في سياقٍ يَّرادُ به النَّفيُ الشاملُ، إذ رأى بأنَّها تأتي زائدةً في أُسلوب النَّفي؛ لتخليص النفي إلى العموم، فهي تعمل على نفي الجنس بشكلٍ كامل. وقد نقل أيضاً شروط زيادتها، وهي :

أحدها: أن تكون مع النكرة. والثاني: أنْ تكونَ عامّة. والثالث: أن تكون في غير الموجَب، أي الكلام المنفي وذلك نحوُ: "ما جاءني من أحدٍ.

ومن خلال الأساليب التوكيدية، التي هيمنت على المستوى التركيبي النحوي، لعلنا نستطيع القول بأنَّ اجتماع الأساليب أو الطرق التوكيديَّة، ومنها أسلوب القسم في قوله تعالى((ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه))، ومعلوم بأنَّه أحد أساليب تقوية المعنى، وكذلك وجود أسلوب طلبي يدلُّ على الإلزام، وهو أسلوب الأمر بالفعل((اعبدوا))، وكذلك ورود النفي الشامل، من خلال تعميم النفي ليشمل منع كل الأجناس من الدخول في جنس الألوهيَّة، وذلك باستعمال الحرف الزائد(مِنْ)- كما أشرنا-، فضلاً عن ختام الآية الكريمة بالخوف المؤكَّد من عذاب يومٍ عظيم، وفيه تحذيرٌ صريحٌ لهم، إذ قال تعالى ((إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ))[الاعراف:59].

كُلُّ ذلك، القسم، والأمر بالتوحيد على وجه الإلزام، والتحذير، والتنبيه بعدم وجود إلهٍ سواه تعالى، وكذلك التحذير من عذاب يومٍ عظيم، كل ذلك لعلَّه جاء انسجاماً مع التشديد، والتأنيب، واللوم، الذي لازم السياق العام للسورة. وبالتالي فإنَّ ما جاء في الآية الكريمة من تلك الأساليب التعبيرية، لعله جاء منسجماً مع المقام العام للسورة، ليشكل صورةً دلاليَّةً متكاملة، تنقل الصورة الواقعيَّة الصادقة للمتلقي.

المبحث الثاني: في سورة هود (عليه السلام):

ومن النصوص القرآنية الكريمة، التي تحدثت عن دعوة النبي نوح (عليه السلام) إلى التوحيد، ما جاء في سورة هود، إذ قال تعالى ((وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ * فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ))[هود:25-27].

ومن أجل أنْ نقفَ على مدى التكامل الدلالي الحاصل بين مستويات التعبير الكريم، لا بُدَّ أنْ نحدِّدَ المقصد الخاص بسورة هود؛ ليتسنى لنا بيان أشكال العلائق الدلاليَّة، التي تعالقتْ بها مستويات التعبير اللغويَّة. وقد ذكر البقاعي(ت885هـ) أنَّ مقصديةَ سورة هود، قد تمحورت حول الحِجِّيَّة، أو القطعيَّة في الانذار والتحذير من عذاب الله تعالى، فهي تتحدث عن الاحكام والتفصيل في مسألة الانذار والتبشير أحياناً، إذ قال (ومقصودها: وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل، في حالتي البشارة والنذارة المقتضى لوضع كل شيء في أتم محاله وإنفاذه، مهما أريد، الموجب للقدرة على كل شيء). وسنعرض ذلك التكامل في المستويات الثلاثة.

الدلالة المعجميَّة:

بدايةً نُشير إلى دلالة تلك الوحدة (نذير) في المعاجم اللغوية، إذ ذكر أحمد بن فارس(ت395ه)، بأنَّ ((نَذَرَ) النُّونُ وَالذَّالُ وَالرَّاءُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَخْوِيفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ. مِنْهُ الْإِنْذَارُ: الْإِبْلَاغُ ; وَلَا يَكَادُ يَكُونُ إِلَّا فِي التَّخْوِيفِ. وَتَنَاذَرُوا: خَوَّفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهُوَ أَنَّهُ يَخَافُ إِذَا أَخْلَفَ. قَالَ ثَعْلَبٌ: نَذِرْتُ بِهِمْ فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُمْ وَحَذِرْتُ مِنْهُمْ. وَالنَّذِيرُ: الْمُنْذِرُ، وَالْجَمْعُ النُّذُرُ. وَالنَّذْرُ أَيْضًا: مَا يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ أُوجِبُ. وَنَذْرُ الْمُوضِحَةِ فِي الْحَدِيثِ مِنْهُ).

أمَّا ابن منظور، فقد ذكر معاني عدَّةً في تلك الوحدة المعجميَّة، إذ ذكر بأنَّها تدلُّ على الواجب، ومنه النَّذر إذا أوجبت على نفسك شيئاً، ويأتي يعبّرُ عن الاعلامِ بشيء، مع التحذير منه، وكذلك يعبّرُ عن الخوف، كقول العرب: تناذر القوم، أي خوَّف بعضُهم بعضاً.

فالمعنى اللغوي ينحصر في مجموعةٍ من المعاني، وهي (التخويف، والابلاغ، والوجوب، والاعلام المصحوب بالتحذير)، ولعلَّ هذه المعاني تتناسب مع المقصود العام لسورة هود- كما أشرنا -، وكذلك مع المعنى اللغوي الذي أشرنا إليه للوحدة المعجميَّة(أرسلنا)، والتي تُشيرُ إلى الشدة في العقوبات-كما نقلنا-، إذ يقدِّمان جوَّاً إدراكيَّاً متناسقاً، يستطيعُ من خلاله المتلقي أنْ يقفَ على المغزى المراد ايصاله، وهو بيان حال الأمم المعاندة للرُّسل والأنبياء.

ولمَّا كانت السورة تتحدث عن عناد القوم، وتأنيبهم، وتخويفهم، فقد ناسب ذلك استعمال الوحدات المعجميَّة التي تدلُّ على تلك المعاني، كأرسلنا، أو النذير، تلك التي تحمل دلالةَ الابلاغ المصحوب بالتهديد لمن يعصي النبي، إذ (قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ

مِنَ النَّذِيرِ كَوْنُهُ مُهَدِّدًا لِلْعُصَاةِ بِالْعِقَابِ، وَمِنَ الْمُبِينِ كَوْنُهُ مُبَيِّنًا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُ نَذِيرٌ لِلْعُصَاةِ مِنَ الْعِقَابِ وَأَنَّهُ مُبِينٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ بَيَّنَ ذَلِكَ الْإِنْذَارَ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَكْمَلِ وَالْبَيَانِ الْأَقْوَى الْأَظْهَرِ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ الْإِنْذَارَ إِنَّمَا حَصَلَ فِي النَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَفِي الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النَّفْيِ وَهُوَ يُوجِبُ نَفْيَ غَيْرِ الْمُسْتَثْنَى).

فالوحدة المعجمية(نذير) قد شكلتْ مع السياق العام تكاملاً دلاليَّاً، وذلك عن طريق مناسبتها لمضمون الآية الكريمة هذا من ناحية، وتمثل ذلك بالتوجيه من منطلق الرسالة والاستعلاء، الذي توحيه كلمة(أرسلنا)، وقد فسرته الوحدة المعجمية(نذير)، التي تدل على التحذير من العناد، أو عدم الاستجابة؛ لأنَّ ذلك يعقبُه عذابٌ شديد.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّها تتناسب مع السياق العام للسورة، وهو سياق قد اتسم بلهجة الانذار والتهديد، والمخاشنة، وفيه أساليب تضمنت الشدة واللوم، ومنه قوله تعالى((وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ *إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ *فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ))[هود:7-12].

الدَّلالة الصَّرفيَّة :

أمَّا لو بحثنا في المستوى الصرفي، بغيةَ بيان الدور التكاملي بينه وبين المستويات الأُخرى، فسنحصل على الدور التكاملي، الذي تُقدِّمُه الوظيفة الصرفية في رسم ملامح الصورة الدلاليَّة العامة.

ونأخذُ الصيغة الصرفية(فعيل) كأنموذجٍ على ذلك، إذ جاءت الوحدة المعجميَّة (نذير) على وزن(فعيل)، ومعلوم بأنَّ هذا الوزن من أوزان المبالغة، إذ ذكر السيوطي(ت911هـ)، بأنَّ الوزن(فعيل) يستعمل للتعبير عن المبالغة في السجايا، التي تأتي من صاحبها، حتى تصبح كالطبيعة في صاحبها، وذلك من كثرة تردُّدِها فيه.

وقد اتضح في كثيرٍ من الآيات القرآنية بأنَّ تلك الصيغة، استعملت في القرآن الكريم للتعبير عن الكثرة التي تؤدي إلى جعل الشيء صفةً أو سجيَّةً بارزةً فيه؛ لأنَّ فعيل تختص بوصف ما زاد عن الحدّ، وجاء وصف المرسلين بها، إذ يقول جلَّ من قال: ((إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا))[البقرة:119].

ومن ذلك المنطلق، يمكن القول إنَّ السياق العام لسورة هود (عليه السلام)، وهو سياقٌ بدا على جوّه العام التحذير، والوعيد، والانذار- كما نقلنا عن البقاعي وغيره- هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ مقابلة، فإنَّ مقصود الآية الكريمة، قد هيمن عليه أسلوب التحذير، والانذار كذلك. وهذا ظاهرٌ من خلال الألفاظ الصريحة في النص الكريم(أرسلنا)، و(نذير)، التي جاءت على صيغ تحمل في بنيتها ما فيه تعبيرٌ عن شدة الألم الذي يحذِّرُ منه النبي نوح قومه.

ومن خلاله كلُّ ما سبق، لعلنا نتمكن من القول إنَّ حضور الصيغة الصرفية(فعيل) في اللفظ (نذير)، قد جاء بالنظر للقيمة الدلالية الكمية(المبالغة)، التي تسعى لتقديم المضمون العام والخاص على الهيئة، التي يتمكن بها المتلقي من بلوغ الادراك الكامل لمقصدية الخطاب؛ ليتسنى له التعامل مع مضمون الرسالة كما يفترض به كمخلوقٍ واعٍ ومدرك.

بمعنى آخر عملت تلك الصيغة على دعم معالم الانذار والتحذير اللذين هيمنا على السورة، وذلك من خلال وظيفتها الصرفية، التي تعبر عنها، وهي الدلالة على الكثرة، والمبالغة. ومن هنا فقد أصبحت الآية الكريمة عنصراً مكمِّلاً لمعالم التحذير والانذار والوعيد؛ لتكون بذلك جزءً لا يمكن الاستغناء عنه اطلاقاً، إذ إنَّ الاستغناء عنه يعني الاستغناء عن الفهم الحقيقي، والدقيق للنص الكريم. وهذا ما لا يكون.

وما دام القرآن الكريم يحملُ رسالةً للإنسانية، ويُعدُّ دستورَ الأمَّة الاسلامية، والمشرع الأول لها، والمُنظم لحياة أفرادها؛ لزم ذلك أنْ يكونَ له أسلوبه الخاص في الدعوة، والتوجيه، والذي يقوم على أساس الانسجام بين المبنى والمعنى' في حزمة من المستويات التعبيرية، والتي تكون ضمن مقامٍ استعماليٍّ تداوليٍّ معين.

الدَّلالة النَّحويَّة :

أمَّا ما تعلق بالجانب التركيبي(النحوي)، فسنجد بأنَّ طريقة الترتيب التي ظهر عليها النَّصُّ الكريم في سورة هود، قد جاء مكملاً، من جهة مناسبة المضمون الخاص للآيةِ المباركة، إذ ناسب المضمون العام أو السياق العام للسورة، فسورة هود جاءت تتحدث عن الانذار والتحذير من عبادة غير الله تعالى، وأن الكتاب قد أُحكمت آياته، وفُصِّلت من أجل أن يصلَ الانسان إلى مرتبةٍ متقدِّمةٍ في استقامة عقيدته، وتلك هي مرتبة التوحيد، أي، لا تعبدوا إلا الله. ومعلومٌ (أنَّ ما يجعل السياق سياقًا مترابطًا، إنما هي ظواهر في طريقة تركيبه ورصفه، لولاها لكانت الكلمات المتجاورة غير آخذ بعضها بحجز بعض، في علاقات متبادلة تجعل كل كلمة منها واضحة الوظيفة في هذا السياق).

وقد رأى الاسكافي(ت420هـ)، وهو يقارن بين ما جاء في سورة هود، وسورة الاعراف، بأن الآية الكريمة في سورة هود، قد بدأت بحرف العطف الواو، ولم تبدأ بالواو في سورة الاعراف، ومعلوم بأنَّ الآيتين تتحدَّثان عن دعوة نوح إلى توحيد الله تعالى. وبعد أن تساءل عن ذلك، ذكر بأنَّ العِلَّةَ في ذلك هي اختلاف السياق العام لكلِّ سورة، إذ بين بأنَّ ما جاء في سورة هود متصل تماماً بما بدأتْ به السورة.

فالسورة قد بدأتْ من أوّلها إلى أنْ وصل الحديثُ فيها عن قصة النبي نوح (عليه السلام)، الحديثُ فيها جاء بتفصيل أكثر، وحدِّيَّةٍ أكبر في كل ما هو احتجاجٌ على الكفار، وتحذير، وانذار، وذلك من خلالِ الآيات العظيمة التي أظهرها الله تعالى للقوم على أيدي أنبيائه الكرام.

أمَّا في سورة الاعراف، فقد جاء الحديث عن دعوة نوح (عليه السلام) للتوحيد بدون حرف العطف الواو، وذلك لأنَّ الكلام في تلك السورة كان مستأنفاً، وترك حرف العطف في الاعراف؛ ليدل على انَّ الكلام في حُكم المنقطع من الكلام الأول.

وقال في موضع آخر بأنَّ ما في الاعراف يُعدُّ مُفتتحاً للحديث عن قصص الأنبياء، إذ قال (إنَّ مفتتح قصص الأنبياء عليهم السلام في سورة الأعراف قوله تعالى: (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) الأعراف: ٥٩).

وما يمكن قولُه بعد ذلك إنَّ حضور حرف العطف في سورة هود، قد حملَ إضافة دلاليَّةً واضحة، إذ تمثَّلت بربط مضمون الآيةِ الكريمة، وهو التحذير، والتشديد، والانذار، بالمضمون الذي بدأت به تلك السورة، والذي غلب عليها، إذ أصبح السِّمةَ الطاغية على مقصدها، وهو التحذير كما ذكرنا، إذ يقول تعالى((الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ))[هود:1 – 5].

ومن هذا المنطلق نستطيع القولَ بأنَّ عملية الربط تلك تمثِّلُ صورة من صور التكامل الدلالي بين مضمون الآية المباركة، وبين السورة الكريمة، إذ جاءت البنية التركيبيَّة للآية تتناسب مع السياق العام للسورة. فوجود حرف العطف، يعني بأنَّ الكلامَ متصل بما قبله، وامتداد له من حيثُ المضمون الخاص أو من حيث التمام والتكميل.

وبين الفخر الرازي (ت606هـ) مضمون الآية، وكيفيَّة بنائها بقوله: (وَاعْلَمْ أَنَّ تَقْدِيرَ الْآيَةِ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ بهذا الكلام وهو قوله: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. ثُمَّ قَالَ: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَقَوْلُهُ: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ثُمَّ إِنَّهُ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا حَصَلَ الْأَلَمُ الْعَظِيمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أُسْنِدَ ذَلِكَ الْأَلَمُ إِلَى الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِمْ نَهَارُكَ صَائِمٌ، وَلَيْلُكَ قائم).

ومن وجوه التكامل الدلالي الحاصل من خلال المستوى التركيبي، ذلك الاختلاف الذي نراه بين محكيات النبي نوح (عليه السلام)، التي وجهها إلى قومه، إذ جاءت مختلفةً تبعاً لاختلاف المقصد العام لكل سورة كما سيظهر.

فالحكايةُ في سورة هود جاءت محملةً بالتحذير الشديد، والخوف من عذاب يومٍ أليم، إذ يقول تعالى((وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ))[هود:25 – 26].

أمَّا في سورة المؤمنون، فقد جاءتْ مختلفةً تبعاً لسياق السورة العام، إذ قال تعالى ((وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[المؤمنون:23].

وقد تساءلَ الخطيب الاسكافي (ت420هـ) عن سبب ذلك الاختلاف، وأرجعه إلى اختلاف المقامات بين السور. ومن أجل بيان ما يراه ننقل التوجيه الذي عقد عليه قناعته، إذ قال (للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكيات كقوله بعد: (مالكم من إله غيره) ... قال في سورة هود: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وفي المؤمنين: (ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) والقصة قصة واحدة؟. والجواب أن يقال: إن للأنبياء صلوات الله عليهم مقامات مع أممهم يكرر فيها الإعذار والإنذار، ويرجع فيها عودا على بدء، الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله، ورفض عبادة ما سوى الله تعالى في موقف واحد بلفظ لا يتغير عن حاله، مثل الواعظ يفتن في مقاله، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه، جاءت المحكيات على اختلافها).

ولعلنا نُسْهِمُ في تقريب الفكرة بالقول، إنَّ التفاوت الحاصل بين المحكيات، التي جاءت على لسان النبي نوح(عليه السلام)، وبالرغم من تشابه مضمون الآيتين، وهو دعوة القوم إلى التوحيد، وإبلاغ القوم بعدم وجود إلهٍ آخرَ يشفع لهم.

لعلَّ مردَّ ذلك التفاوت هو وجود صفة التكامل في كل مستويات النص القرآني؛ ليقدِّمَ للمتلقي تصوراً متكاملاً، ولوحةً فنيَّةً مُعبِّرةً عن المقصودين، الخاص، وهو ما تعلَّق بالآيةِ، والعام، وهو ما تعلَّق بالسورة.

فلمَّا كان مقصود السورة الكريمة (المؤمنون) يُشير إلى فلاح المؤمنين، واختصاص الفلاح بهم، فقد جاء الكلام المحكي عن النبي لقومه أقلَّ شدَّةً؛ لأنَّه جاء يتناسب مع مقصدية السورة.

فالسورة بدأتْ بقوله تعالى((قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ))[المؤمنون:1]، وهذا الافتتاح يُشير بشكلٍ واضح إلى ما تقدِّمه السورة من مضامين، إذ ذكر السيد الطباطبائي، أنَّ السورة بدأت بالحديث عن المؤمنين، واستمرت إلى تمام ثماني آيات، تتحدَّثُ عن أوصاف المؤمنين، إذ قال تعالى((قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ *))المؤمنون:1 – 11].

وذكر كذلك بأنَّها خُتِمتْ بما يتناسب وينسجم مع بدايتها، إذ قال بأنَّ قوله تعالى: ((وقُلْ ربِّ اغفِرْ وارحم وأنت أرحمُ الراحمين))، جاء في خاتمة سورة المؤمنين، وبذلك قد اختتم الله تبارك وتعالى الكلام بما افتتح به في أوَّل السورة، إذ قال تعالى ((قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)).

ورأى بعض الباحثين بأنَّ اختتام الكلام في سورة المؤمنون، بما بدأتْ به، وهو حديثٌ يدور حول قضية الايمان والمؤمنين، وكذلك تأكيد فلاح المؤمنين، وعدم فلاح الكافرين، هو شكلٌ من أشكال الترابط والانسجام النَّصيبين بين مستويات النص الكريم.

والخلاصة بعد ذلك، فالتفاوتُ بين المحكيات، سببُهُ اختلاف المضامين العامة لكل سورة، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أُخرى لعله رادٌّ إلى الدِّقة العالية للتصوير القرآني. فبالرغم من تشابه المضمون الخاص، وهو الدعوة إلى التوحيد، فقد راعى الجو العام لكل سورة، وبما يتناسب مع نوع الخطاب، من حيثُ كونه خطاباً متشدِّداً، كما في سورة هود، أو كونه خطاباً ليِّناً كما في سورة المؤمنين.

وما ذلك إلا صورةٌ جليَّةٌ من صور التكامل في مستويات التعبير القرآني، والذي يقدِّم من جهة الضرورة الحتمية تكاملاً في كُلِّ مستويات التعبير، ومنها المستوى الدلالي، الذي يُعدُّ الغايةَ المرجوَّة.

المبحث الثالث : في سورة نوح (عليه السلام) :

أمَّا دعوة التوحيد في سورة نوح، فقد كانت تتسم بالتهديد في الأمر بتقوى الله تعالى من أوَّل الأمر، إذ قال تعالى ((إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىٰٓۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ *))[نوح:1 – 4].

وقد كان مقصودها، يتضمن الدلالة على القدرة على ما أُنذِرَ به، وكذلك تدلُّ على القدرة على اهلاكِ القومُ الذين أُنْذِروا، وتبديلهم بما هو خير منهم، وكذلك تُشيرُ إلى قدرته تعالى على إيجاد يوم القيامة، الذي طال تحذيرهم منه، وهم في غفلةٍ عنه واعراضٍ عنه، وتكذيبٍ به.

الدَّلالة المعجميَّة :

وسنأخذ الوحدة المُعجميَّة(قومي) من النص، لنرى الدور الذي تؤديه في عملية التكامل الدلالي الحاصل بين مكونات الآية الكريمة.

ورد أكثر من معنى لها في المعاجم اللغويَّة ، فقد ذكر الأزهري(ت370هـ) في معنى القوم معانياً عِدَّةً منها: إنَّها تدل على الرجال دون النساء، وقد استشهد على ذلك بقول الشاعر زهير: وَمَا أَدْرِي ولستُ إخالُ أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِسَاءُ.

وقال أيضاً بأنَّها تُشير إلى كُلِّ رجلٍ ينتمي إلى افراد عشيرته المقربين، وإلى كل رجل من شيعته، والقيام ما تُقام بها الأُمور. ومنه الاستقامة.

أمَّا الرازي(ت666هـ)، فقد أورد ما يُعزِّزُ دلالة اللفظ على الرجال دون النساء من خلال استدلاله بالنص القرآني الكريم، إذ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ((لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ))[الحجرات: ١١]، ثُمَّ قَالَ: ((وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ))[الحجرات: ١١]. ووجه استعمال اللفظ للجنسين من باب الاتباع؛ لِأَنَّ قَوْمَ كُلِّ نَبِيٍّ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ. وذكر أيضاً في معنى القوم معاني أُخرى، منها الانتصاب والعزيمة، والطول، والموضع ومنه قوله تعالى ((حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا))[الفرقان: ٧٦] أَيْ مَوْضِعًا.

ومن المعاني التي ذكرها جمال الدين الكجراتي (ت986هـ)، التي تعبر عنها تلك الوحدة المعجميَّة هي: قضاء الحاجة الضرورية، وكذلك فإنَّ قوام الأمر يعني ملاك الامر، والقوم مصدر يغلب وصف الرجال به دوم النساء؛ لأنَّ الرجال قوامون على النِّساء، والقيام على الحقِّ يعني الثَّبات عليه، والسُّنَّةُ القائمة، أي المستمرة.

ومن منطلق (أنَّ الفصاحةَ، والبلاغةَ، وسائرَ ما يَجري في طريقِهما أوصافٌ راجعةٌ إلى المعاني). فلعلَّ ما حملته تلك اللفظة(قوم) من معانٍ، كانت السبب الأساس الذي فرض استعمالها في ذلك التركيب، الذي جاء كحلقةٍ من حلقات التماسك الدلالي، أو التكامل الدلالي بين مكونات النص الكريم.

فالمقام الذي جاءت عليه سورة نوح على مستوى العموم، قد بُني على الانذار والتَّحذير، والنَّصُّ الذي نحن بصدده، لا ينفك عن ذلك المقام، بمعنى أنَّ الخطاب هنا جاء مُحَمَّلاً بالتَّنبيه، والتَّحذير، والإنذار من عذابٍ أليمٍ قادمٍ.

ودعوة التوحيد في خطاب الأنبياء وردت في تسعةٍ وعشرينَ موضعاً في سورٍ متفرقة، وهذا يُعدُّ مؤشراً صريحاً على الخطورة والضرورة في الوقت نفسه، فلا بُدَّ من ترك الشرك والعمل بالتوحيد. أمَّا دعوة النبي نوح، فقد وردت في ثماني سورٍ.

ومن هنا نستطيع توجيه الدَّور الذي تقومُ به تلك اللفظة، ومدى ارتباطها بالسياق العام، وذلك من خلال الربط بين المعنى المعجمي لها وبين سياقها-كما نقلنا عن البقاعي وأصحاب المعاجم-.

ولو حاولنا ربط المعاني المركزية لتلك اللفظة، وهي : (الرجال دون النساء، والذين عليهم مسؤولية القيام بسد حاجات الناس، أو من بيدهم ملاك الأمور، والثبات، والوقوف، والاستقامة) بالسياق العام للسورة الكريمة، فلعلنا نستطيع القول: إنَّ خطاب النبي نوح (عليه السلام) لقومه، قد أورد تلك اللفظة؛ ليُشيرَ إلى أنَّ الأمرَ خطيرٌ جداً، ولأنه كذلك، فقد خاطب مَنْ بيدهم زمام الأمور، ومَنْ بيدهم القدرة على تغيير المسار العام للناس، وهم مَنْ وقعت عليهم المسؤوليةُ كاملةً في تصحيح المسار الذي عليه الناس.

بمعنى أنَّ تلك المعاني التي تضمنتها تلك اللفظة، هي التي أوجبت حضور ذلك اللفظ دون غيره، لتكتملَ بذلك فصاحة النص وبلاغته، ومن خلال ذلك سيكون حُجَّةً على من يتلقَّاه، سعياً وراء تحقيق الغاية العظمى من الرسالة، وهي تغيير واقع المجتمع، الذي لا يمكن من دون عِلْيَةِ النَّاس، وهم من ينطبق عليهم لفظ القوم.

فذلك اللفظ شأنُه في ذلك شأنُ كلِّ مفردة تُساق في سياقها، إذ تعمل ضمن مجموعةٍ من العلاقات العُرفيَّةِ الاجتماعيَّةِ، وكذلك ضمنَ نوعٍ من العلائق المنطقيَّةِ، التي لا يصحُّ أيُّ كلامٍ من دون مُراعاتها.

الدَّلالة الصَّرفيَّة:

بدايةً نُشيرُ إلى مسألة مهمة، ارتبطت بكيفيَّةِ التعبير عن دعوة التوحيدِ عند نوح (عليه السلام)، وتمثَّلت تلك الكيفيَّة بوجود تطابق تعبيري واضح بين السُّور التي عمل فيها البحث. إذ قال تعالى في سورة الأعراف ((لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ))[الاعراف:59].

وقال سورة هود، إذ قال تعالى ((وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ))[هود:25-26].

وقال تعالى في سورة نوح ((إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ *))[نوح:1 – 4].

إنَّ اتِّحادَ المقامات من جهة العموم (التحذير) فرض تقارباً كبيراً في أسلوب التعبير اللغوي عن تلك الدَّعوة. إذ تمثلت تلك المقامات بالتحذير مع التأنيب في الاعراف، والاحكام والحَدِيَّة في البشارة والنَّذارة في سورة هود(عليه السلام). والقدرة على انجاز ما أنذر به في سورة نوح(عليه السلام).

ومن هذا المنطلق نستطيع القول إنَّ سبب حضور الصيغ الصَّرفية (أفعل) في قوله تعالى((أرسلنا))، و(فعيل) في قوله تعالى((أليم))، وكذلك نجِدُ الصيغة ذاتها قد تكرَّرتْ، وهي(فعيل) في قوله تعالى((نذير)) هو للإشارة إلى خطورة الموقف الذي عليه الكافرون.

ففيه تخويفٌ لمشركي قريش وتحذير لهم، ولا يتأتَّى ذلك التحذير إلا من خلال انسجام المستويات جميعاً. وقد أسهمت هذه الصيغُ في رفد بيان ذلك الأمر من خلال ما تدلُّ عليه كلُّ صيغة-وقد أشرنا لبعضها في المبحث السابق-. فصيغة(أفعل) تدل على الكثرة والمبالغة. وحملت في دلالتها المُعجميَّة اشارة إلى معنى البعث الذي يرافقه الاستعلاء.

ولعلنا نستطيع القول إنَّ اجتماع الوزن الصرفي(أفعل) الدال على الكُثرة، مع المعنى المعجمي الدال على الاستعلاء الذي يوجب الطمأنينة والوقار والثقة لصاحبه جاء متناسباً مع مقصد سورة نوح (عليه السلام)، الذي يتضمن الدلالة على القدرة على ما أُنذِرَ به، وكذلك تدلُّ على القدرة على اهلاكِ القومُ الذين أُنْذِروا، وتبديلهم بما هو خير منهم، وكذلك تُشيرُ إلى قدرته تعالى على إيجاد يوم القيامة، الذي طال تحذيرهم منه، وهم في غفلةٍ عنه واعراضٍ عنه، وتكذيبٍ به.

ومن الكلمات التي جاءت تعبر عن خطورة الحال وشدَّته ما جاء في وصف العذاب بأنَّه ((أليمٌ)). وأصله من الفعل(أَلِمَ) بكسر اللام؛ لأنَّ (الْفِعْلَ مِنَ الْأَلَمِ أَلِمَ. وَهُوَ أَلِمٌ، وَالْمُجَاوِزُ أَلِيمٌ، فَهُوَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ. وَكَذَلِكَ وَجِيعٌ بِمَعْنَى مُوجِعٍ).

بمعنى أنَّ أصل الكلمة اسم فاعل، وقد حوَّل إلى وزن المبالغة (فعيل) في حال تجاوز الوجع حدَّاً معيَّناً. ولا يمكنُ عدَّه صفةً مُشبَّهةً؛ لأنَّ الصفة التي على وزن (فعيل) يفترض لها أنْ تدلَّ على صفةٍ ثابتةٍ، مثل كريم، وبخيل.

وقد أشار الطاهر بن عاشور في معرض حديثه إلى ذلك، إذ رأى أنَّ (مَعْنَى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أَنَّهُ يُخَوِّفُهُمْ غَضَبَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ إِذْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَلَمْ يُطِيعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُنْذِرَهُمْ عَذَابًا يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ لِيَكُونَ إِنْذَارُهُ مُقَدَّمًا عَلَى حُلُولِ الْعَذَابِ).

نخلص من ذلك إلى أنَّ اجتماع هذه الصيغ الدالة على الكثرة أو العلو، قد هيمنت على النَّص الكريم لتقوم بدورها في بناء التكامل الدلالي لهذا النص؛ ومن ثَمَّ يقع على مسمع المتلقي كالصاعقة التي تُنْذِرُهُ من عذابٍ أليمٍ. وبهذا قد ثبت أنَّ هذه الصيغَ الصرفيَّةَ جاءت متناسبةً مع مقام سورة نوح (عليه السلام). فشدَّة العذاب تعملُ على تخويف القوم، ومن ثَمَّ حثُّهم صوب ترك الكُفر والايمان بوحدانيته تعالى.

الدَّلالة النَّحويَّة :

أمَّا المستوى النحوي، فقد كان له دور بارز في اكمال الهيكل الدلالي للنص، وذلك من خلال كيفيَّة نظم أساليبه التركيبية، التي تتناسب مع المعاني المستوحاة من التركيب، والتي تذوب في المزيج العام الذي تحتويه السورة المباركة.

ومن ذلك استعمال أسلوب النداء في دعوتهم إلى التوحيد، والنداء يحمل في طياته العديد من الدلالات منها، دعوة المنادى، فقولك: يا عبد الله فكأنك قلت يا أريد أو أعني عبد الله.

أمَّا قولك: يا عبد الله، فإنَّك تعني، ادعو عبد الله؛ لِأَن يَا بدل من قَوْلك أَدْعُو عبد الله. وذكر أبو البقاء العكبري(ت616هـ)، بأنَّ الغرضَ من النداء هو تَنْبِيه المدعوّ ليسمع حَدِيثك، ورأى في قبالة ذلك بأنَّ غرض النداء في الديار فعلى طَرِيقَة التذكّر والتذكير.

وذكر الطاهر بن عاشور أنَّ النبي نوح قد افتتح دعوته بالنداء، وذلك لأسباب ذكرها بقوله: (وَافْتِتَاحُ دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ بِالنِّدَاءِ لِطَلَبِ إِقْبَالِ أَذْهَانِهِمْ وَنِدَاؤُهُمْ بِعُنْوَانِ: أَنَّهُمْ قَوْمُهُ، تَمْهِيدٌ لِقَبُولِ نُصْحِهِ إِذْ لَا يُرِيدُ الرَّجُلُ لِقَوْمِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ. وَتَصْدِيرُ دَعْوَتِهِ بِحَرْفِ التَّوْكِيدِ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْخَبَرِ).

والنداء في التَّعبير القرآني أحد الأساليب الانشائية، التي اعتمدها النَّصُّ الكريم للإخبار عن الكثير من الاغراض، منها الحثُّ على الاهتمام أكثر على الموضوع الذي سيق لأجله الكلام، وكذلك فيه ضمنيَّاً دعوة المنادى إلى التبصرة، والتفكر بما يُعطِي المضمون، ناهيك بالتلوين التعبيري، والالتفات البليغ، الذي يبعثُ على استمالة المخاطب إلى الخطاب بمقبوليَّةٍ أكثر، وكذلك يعملُ على تقويةِ التفكر، والتَّأمل، وتخيل المعنى لدى السَّامع.

ويبدو أنَّ افتتاح النبي نوح دعوته بالنِّداءِ، جاءتْ لتكمل بناء الهيكل الدلالي الخاص للآية الكريمة، وقد تمثَّل بضرورة الاستجابة لتلك الدعوة، وأنَّ عدم الاستجابة سيعقبه أمرٌ مهولٌ.

و يمتدُّ هذا الأمر إلى البناء الدلالي العام للسياق، الذي يهيمن على السورة المباركة، وهو سياق الانذار، والتحذير، وهذان لا يناسبهما إلا الأساليب ذاتَ الصبغة الدلاليَّة التَّنْبِيهيَّة، التي تجعل من السَّامع أكثر حيويَّةً في تعاطيه مع الأمر الواقع، وتجعله كذلك أكثر رغبةً في التعاطي مع ما يفترض حصوله؛ لأنَّ النداء فيه معنى التحنن، والاستعطاف، والتحبب.

ومن الأساليب التركيبيَّة النحويَّة الأخرى، التقديم لما حقُّه التأخير، إذ قدَّم الجار والمجرور(لكم) على عامله، وهو(نذير) في قوله تعالى ((قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ))[نوح:3].

ومعلوم لدى الاسلوبيين أنَّ لكُلِّ لغة مستويين من التعبير، المستوى الأول، ويسمَّى المستوى المثالي، أو ما يقابل الأصل بالوضع، كما وصفه الدكتور فاضل السامرائي، ورأى بأنَّه يُساق لغرض الاخبار أو الانشاء، ولا يُسأل عن سبب وضعه؛ لأنه يحسب استعمالاً طبيعيًّا ومتداولاً، لدى أصحاب اللغة الواحدة، ويخرج عن غايته الأصل (الاخبار أو الانشاء)، إذا خرج إلى المستوى الآخر، كما في التقديم والتأخير.

فكلُّ نظمٍ يجري على الأصل المثالي، الذي يقوم على النظام الموافق لمقتضيات الرتبة النحوية، هو نظمٌ يقوم على أصل وضع اللغة الذي شاع، وأصبح قالباً تُصبُّ به التراكيب، ومن يعدل عنه يُعدُّ خارجاً عنه، ومن وراء خروجه غايات خاصة.

أمَّا المستوى الثاني، فيسمَّى بالمستوى الابداعي، ووصفه دي بوجراند بالأنشطة الابداعية، وتلك التي تحقِّقُ الاعلاميَّة أو الاخبار عن طريق احداث بعض التعديلات، التي يحدثها المتكلم بالخروج على التنظيم الطبيعي للغة (المثالي)، أو الذي اعتاده السَّامع، وكان دائم التوقع له عند التحاور.

(فالعدول عن النظام التركيبي في النص القرآني، وصلته بالدلالة وظلالها التي تُسمَّى بالمعاني الثانية وهي دلالات فنية ابداعية لا تؤديها اللغة المُباشرة، التي أطلق عليها المعاصرون: اللغة النفعية الإيصالية أو المثالية).

ومن هذا المنطلق، نستطيع القول إنَّ عملية التقديم لما حقُّه التأخير، يعمل على تقديم دلالات جديدة، لا تستطيع اللغة المباشرة أو المثالية أنْ تؤديها.

والدكتور محمد حماسة ذكر أنَّ هناك عملية تفاعل متبادلة بين المستويين، فهناك عملية أخذ وعطاء بين عناصر المستوى النحوي، وعناصر المستوى الدلالي، فكل الظواهر النحوية، والتقديم والتأخير منها، ذات تبادل تأثيري مستمر مع عناصر المستوى الدلالي.

وهذا ما سنجدُه في تقديم الجار والمجرور في النص الذي نحن بصدده. إذ إنَّ عملية تقديم الجار والمجرور في اللغة العربية تحمل محتوى دلالياً، ووجه الدكتور فاضل صالح السامرائي ذلك توجيهاً دلاليًّا محضاً، إذ قال إنَّ : (تقديم المفعول به، والجار والمجرور، والظرف وغير ذلك وهو يفيد ما أفاده الأول من الإثبات والنفي... وكذلك الجار والمجرور نحو (ما إلى جاء) فإنه نفي المجيء إليه، وأثبت المجيء إلى غيره، بخلاف ما لو قال (ما جاء إلي) فإنه نفي المجيء إليه، ولم يعرض للمجيء إلى غيره فقد يكون حصل أو لم يحصل). فتقديم((لكم)) هنا حمل قيمةً دلاليَّة، تتناسب والمضمون العام للسُّورة والمضمون الخاص للآية، الذي تنتمي إليه.

ورأى أبو حيان الاندلسي (ت745هـ) أنَّ مُنَاسَبَتَهَا، تكمنُ في أَنَّهُ تَعَالَى لمَّا أَقْسَمَ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ المشركين بخَيْرٍ مِنْهُمْ، وَكَانُوا قَدْ سَخِرُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَّبُوا بِالْعَذَابِ، ذَكَرَ قِصَّةَ نُوحٍ وَقَوْمِهِ مَعَهُ، إذ كَانُوا أَشَدَّ عِناداً، وعصياناً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ اسْتِئْصَالٍ، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يُبْقِ لَهُمْ ذُرِّيَّةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَكَانُوا مشركين، أيْ كانوا عُبَّادَ أَصْنَامٍ كَمُشْرِكِي مَكَّةَ، فَجاء النص الكريم يُحَذِّرُ مشركي قُرَيْشٍ من أَنْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ يَسْتَأْصِلُهُمْ إنْ استمروا على عصيانهم.

فالظاهر من كلام الأندلسي، أنَّ النص ينتمي إلى سورةٍ، تحمل رسالةً تحذيريَّةً شديدةً، وهذا بدوره يستلزم أساليب تتناسب مع خطورة الموقف، الذي ارتبط بالإيمان بمضمون الرسالة؛ لذلك جاء النَّصُّ محمَّلاً بأكثر من طريقةٍ توكيديَّة، إذ جمع في صدر الدعوة مجموعةً من المؤكدات، كان منها تقديم الجار والمجرور؛ لغرض الاهتمام، وزيادة التنبيه، وتخصيص النذارة لفائدتهم، لا لفائدة النبي نوح (عليه السلام).

وقد بيَّنَ الطاهر بن عاشور ذلك، إذ قال إن الله تعالى قد (جَمَعَ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِ خَمْسَةَ مُؤَكِّدَاتٍ، وَهِيَ: النِّدَاءُ وَجَعْلُ الْمُنَادَى لَفْظَ يَا قَوْمِ الْمُضَافَ إِلَى ضَمِيرِهِ، وَافْتِتَاحُ كَلَامِهِ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ، وَاجْتِلَابُ لَامِ التَّعْلِيلِ، وَتَقْدِيمُ مَجْرُورِهَا).

يمكن أنْ نخلُصَ من ذلك إلى أنَّ المضمون العام، الذي تضمنته السورة المباركة، وقد تمثَّلَ بمقصودها - كما أشرنا إليه- وهو التحذير، والانذار من عذابٍ شديد، قد استوجب استعمال مثل هذه الأساليب التركيبيَّة النَّحوية؛ لتكون عاملاً مُكمِّلاً لرسم الاطار العام للنص، الذي تلخص بوجوب الاستجابة لتلك الدعوة. وبهذا يأتي في وظيفةٍ دلاليَّةٍ مُكمِّلةٍ للدور الذي قدَّمته الوحدة المعجمية(القوم)-كما أشرنا-، فكلاهما يظهر خطورة الموقف الذي يتطلب ضرورة الاستجابة، بمعنى أنَّ كليهما يعرض الخطورة الكبيرة التي سوف تحلُّ بالقوم في حال عدم الاستجابة.

فالقوم وهم من بيدهم زمام الأمور، قد قصدهم الخطاب دون غيرهم؛ لأن التغيير بيدهم دون غيرهم، فجاء الخطاب لهم، والتقديم يدعوهم إلى التنبه أكثر، وعدم الغفلة، وضرورة النظر إلى تلك الدعوة بعين التفكر والتأمل، وما ذلك الذي نراه إلا من منطلق الرحمة التي اتصف بها النبي، ومن أرسله رحمةً للعالمين.

الخاتمة

أظهرَ البحثُ أنَّ ظاهرة التَّكامل الدلالي احدى السِّمَاتِ التي تميَّز بها النَّصُّ القُرآني المجيد، وتُعَدُّ وجهاً من وجوه القرآن الكريم الاعجازيَّة. وقدَّم البحثُ تعريفاً لظاهرة (التَّكامل الدلالي)، إذ رأى أنَّه: التَّكاملات الحاصلة بين المستويات اللغوية في النَّصِّ القُرْآنيِّ الكريمِ. ومن خلاله يستطيعُ المُتلقي أنْ يقفَ على مستوى التَّفاعل والانسجام الحاصلِ بين دلالات تلك المستويات. بمعنى إنَّهُ النتيجةُ أو الحصيلةُ النهائيَّةُ الحتميَّة الناتجَةُ عن تفاعل وانسجام بين دلالة المستوى المعجمي، ودلالة المستوى الصرفي، ودلالة المستوى النحوي، مع حاكمية المغزى أو المقصدية، التي تُعدُّ العاملَ الأكثرَ تأثيراً في توجيهِ الدَّلالة.

حرص البحثُ على بيان السمة القرآنية، التي تُشير إلى أنَّ كيفيَّة الدعوة التوحيديَّة، التي وجهها الأنبياء والمرسلون، كانتْ تتقارب إلى حدٍّ كبير في أساليبها التعبيرية، والموضوعيَّة مع مراعاتها الدقيقة للمقصود العام لكل سورة. فلكلُّ خطابٍ خصوصيَّةٌ يستمدُّها من السِّياق الذي سيق فيه النَّصُّ. فالموضوع المركزي واحدٌ، وهو الأمر بعبادة الله تعالى. والتعبير متغيرٌ بحسب المقصود العام للسورة، والمقصود الخاص للآية.

أنَّ العملية التكاملية للوحدة المعجميَّة، قد حصلت من خلالِ المزيج المتناسب بين ما تحتويه تلك المفردة من معانٍ، وبين ما بُنيتْ عليه السورة الكريمة من مضامينٍ أو موضوعاتٍ.

ثبت أنَّ الصيغَ الصرفيَّةَ جاءت متناسبةً مع مقام كل سورة . ففي سورة نوح (عليه السلام). شدَّة العذاب تعملُ على تخويف القوم، ومن ثَمَّ حثُّهم صوب ترك الكُفر والايمان بوحدانيته تعالى.

وجدَ البحثُ أنَّ طريقة التعبير اللغوية للآية القُرآنيَّة، تخضعُ إلى الكيفيَّة التعبيريَّة العامة للسورة الكريمة. هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أُخرى فالكُلُّ يخضع لحاكمية المقصد العام الذي بُنيتْ له طريقة التعبيرات في أثناء السُّورة جمعاء. وبدا ذلك –كمثال- في سورة الاعراف عند الحديث عن دعوة التوحيد، إذ خضع التعبيرُ إلى ما غلب على الاعراف، وهو الانذار والتحذير والتأنيب. وظهر ذلك على المستويات جميعاً. ومثاله استعمال (أرسلنا)، الدال على الارسال، ويحملُ معنى العلو والقوة. وكذلك ما توحيه الدَّلالة الصَّرفية من خلال صيغة(أفعل) التي جاء عليها الفعل(أرسلنا)، إذ توحي الصيغةُ-كما نقلنا عن ابن درستويه (ت347ه)- بالقوة والشِّدة. فضلاً عن ذلك، حضور التوكيد في المستوى النَّحوي؛ لأنَّ من متطلبات القوة وجود تقوية المعنى.